النّص الروائي الجزائري وتجربة استلهام التاريخ – رواية "خيرة والجبال" لمحمد مفلاح – أنموذجا.

من إعداد الأستاذة :

مسكين دليلة

تحت إشراف :

الأستاذ الدكتور عطاطفة بن عودة.

المركز الجامعي:

أحمد زيانة– غليزان

الملخص:

نهدف من خلال هذه الدراسة إلى كشف عنصر التجريب الذي عمد إليها الروائي "**محمد مفلاح**" في روايته "**خيرة والجبال**"، إذ أنّه لابدّ من استجلاء نص روائي جديد يمكن القارئ من الانجذاب إلى قراءة الرواية،والاستفادة من مضامينها، أو الكتابة وفق نهج خطواتها،الأمر الذي جعل من النّصوص الروائية تخضع لتوظيف آليات وتقنيات منوعة مثل سائر النّصوص الأدبية،كون أنّ هذا النّص كتلة لغوية متجانسة، تقبل التغيير والتأثر بعامل الزمان أو المكان واللذان يدفعاننا إلى طرح يفضي إلى العديد من الأسئلة الفرعية ألا وهو: هل نجح الروائي "محمد مفلاح" في المزاوجة بين فن الكتابة الروائية واستحضار لعبة الزمن المستهدف من خلاله سرد تاريخ واقع الجزائر الثوري بكل آلامه وأوجاعه؟

Abstract:

The aim of this study is to uncover the element of experimentation undertaken by the novelist Muhammad Mufallah in his novel The Good and the Mountains. It is necessary to clarify a novel text that enables the reader to draw attention to reading the novel, and to benefit from its contents or to write in accordance with its steps. The texts are subject to the use of mechanisms and techniques as diverse as other literary texts, the fact that this text is a homogeneous language block, accept change and influence the factor of time or place, which lead us to a subtraction leads to several sub-questions, namely: Did novelist Muhammad Mufallah

succeeded in the combination of the art of writing Novels and evocations What is the target time for recounting the history of Algeria's revolutionary reality with all its pains and aches?

مقدمة:

إذا ما تتبعنا المسارات السردية وواقعها الراهن في كتابات الروائيين الجزائريين، نلفيها تتعدّد بحسب اختلاف اتجاهاتهم ونزعاتهم القومية والإنسانية، وبالتالي الوقوف على تيمات عديدة يتخللها طابع ذات مسحة وطنية تاريخية، ولا بدّ لنا من استحضار هذه الملاحظات الإبداعية والتنظيرية سواء تعلق ذلك بالمصوغ الشكلي للبنية الروائية . القالب – أو ارتبط بالسبك المضموني المفرغ فيه، ولاشك أن المحكي الروائي الجزائري اهتم بالجانب الشكلي في بناء نصه السردي ولم يغفل الجانب الآخر ؛الوجه الثاني الذي ليس بمقدور المرسل أو المتلقي فصله عن الأول والمتمثل في محتوى الرواية، المؤسس في غالبيته على موضوعات تاريخية فكرية منطلقها الوضع المعيشي للشعب الأبي، والذي يتميز بطابعه الخطابي الروائي الجزائري، لأنّ ما ران على الشعب من قهر وتسلط وحرمان في فترة الاحتلال الفرنسي الغاشم قد ترك بصمة على فنون الأدب الجزائري بعامة وفن الرواية على وجه الخصوص، ونشير أساسا إلى رواية **خيرة والجبال** " "**لمحمد مفلاح**" التي أطل بها على رقعة تاريخية جغرافية من ضمن ربوع الوطن وهي منطقة "غليزان". حيث أنبنت عناصرها، واجتمع تأليفها حول تاريخ المنطقة في عهد الاستعمار، والتي سلطنا عليها الضوء في دراسة موضوعنا هذا للنظر في كيفية تجريب الروائي كتابة التاريخ ومنطلقه في تصوير ظروف هذه البيئة،وكيف تستر بالمرأة ليروي لنا زمن الحرب والرصاص المسلطين على الشعب الجزائري.

I. قيمة التاريخ عند الإنسان :

إذا كان لابدّ لنا أن نشيد بالفرد سواء داخل أطره الاجتماعية أو خارجه . فمن واجبنا التحديق إليه من خلف عدسة تاريخه الاجتماعي والثقافي والحضاري والسياسي...وغيرها كون "أتفن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقننا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم،حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوعة،وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن الزّلات والمغالط لأنّ الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس منها الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب،فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق"[1] .

ولما ارتقت مكانة التاريخ إلى هذا السمو العظيم بين تجاذب أقطاب الفنون،وتداخل جل أصناف العلوم العديدة المتنوعة والتي يسعى الفرد من خلالها إلى لملمة فتات معارفه حوله أو حول حضارات غابرة تمتد إلى أطراف وجوده،هبت طائفة العلماء والكتاب والمؤرخين وغيرهم من الذين استلهمهم فن التأريخ إلى تدوينه، وكلا حسب مستواه المعرفي والعلمي، ومجال بحثه المتخصص فيه، وننحو من هذا ناحية فريق الأدب الذين لم يكونوا بمعزل عن رواد التاريخ، حيث أسهموا إلى جانبهم في الإشادة بمحطات تاريخية مهمة،والاعتبار بها كما لم يغفلوا الجانب الأسود منها منها-المحطات التاريخية – وراحوا يكشفون عن خباياها من داخل زوايا الظل ولم يقتصروا في ذلك كله على الشعر وحده، أو على النثر دونما الشعر،ونخص بالذكر فئة الروائيين الذين اتخذوا من الفن الروائي النثري ملهما لهم يضربون به جذور القدم،ويستلون بعده أقلامهم ليجربوا كتابة التاريخ، ساكبين إياه في قالب نثري غير خاضع لتلاحق عقارب الساعة، لأنّ التاريخ إن كان يستطيع أن يعيد نفسه فهو لا يستطيع أبدا التعريف بها، ويرويها على أحفاده ويزرع فيهم حس اليقظة والشعور بالانتماء،إلّا عن طريق غيره من العلوم والفنون كالرسم والموسيقى والأدب ...وغيرها من الفنون.

1) **مفهوم التجريب:**

وقبل أن نلج في أغوار الرواية التاريخية وكيف تمّ التجريب بداخل متنها واستلهام الماضي من قبل الكتاب الروائيين في العالم أجمع والجزائر على وجه الخصوص،نعرج قليلا على معنى مصطلح التجريب الروائي الذي جاء في التداول النقدي والإبداعي يدل"على مشروع رؤية فنية تحث على الاجتهاد والفضول والمغامرة، وعدم التسليم أو القناعة بما هو جاهز من الأشكال والرؤى وأنماط التعبير"[2]، وهو كما يقول :صلاح فضل: في كتابه "لذة التجريب" أنّ:"التجريب قرين بالإبداع لأنّه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير المختلفة، فهو جوهر الإبداع وحقيقته عندما يتجاوز المألوف ويغامر في قلب المستقبل، ممّا يتطلب الشجاعة والمغامرة واستهداف المجهول دون التحقق من النجاح، والفن التجريبي يخترق مساره ضدّ التيارات السائدة بصعوبة شديدة، ونادرا ما يضفر بقبول المتلقين دفعة واحدة بل يمتد أوساطهم بتوجس وتوءدة، ويستشير خيالهم ورغبتهم في التجديد باستثمار ما يسمى بجماليات الاختلافات، ويتوقف مصيره لا على استجاباتهم فحسب .كما يبدو للوهلة الأولى —بل على قدر ما يشعه من تطلعاتهم البعيدة عن التوقع ويوظفه في إمكانياتهم الكامنة،فجدل التجريب الإبداعي متعدد الأطراف،لا يتمّ داخل المبدع في عالمه الخاص، بل يمتد إلى التقاليد التي يتجاوزها والفضاء الذي يستشرفه المخيال الجماعي"[3]، ومن هذا فإنّ التجريب عند الكاتب "صلاح فضل" مقرون بالإبداع، إذ تعدّ المغامرة

---

1. [2] أسماء أولاد إبراهيم،التجريب في الخطاب السردي عند السعيد بوطاجين رواية محمد مفلاح أنموذجا .رسالة ماجستير مستغانم الجزائر 2010 م-2011 م.ص 11
2. 2 . المرجع نفسه .ص 16

في امتطاء طرائق وأساليب حديثة الجدة بمثابة المجازفة لأجل استهداف عوالم غير معروفة ومتوقعة، ودونما تأكد من تحقق النجاح والانتصار،وجعل "برزخ فاصل بين من يبدع من داخل المعيار، ومن يشيد عوالمه الممكنة من خارجه، بين من يجد لذة في فن الاستعادة والمحاكاة، ومن يجد استهواءه الفني في العدول والتحليق خارج الأسراب .ولما كانت الرواية ذلك الجنس الأدبي الذي ينفتح على سائر تشكلات الفعل الإبداعي في شتى صوره التراثية والمعاصرة، المحلية منها والعالمية، والقادر على التفاعل معها عبر أشكال متعدّدة من التعلق النّصي، تعكس اختلافا في المرجع وتنوعا في الرؤية من كاتب لآخر فإنّها تبقى مقبلة دوما على التجريب الذي تستمد منه دوما تجدد نسخها، وتطور آليات إنشائها،وعالما روائيا لا يزال بصدد التشكل يتعالى على الثوابت والحدود، من خلال مساءلة السابق من الكتابات ومساءلة الذات "[4] ،بمعنى أنّ التجريب قد نال حصة الأسد من الاهتمام وقت انغماسه في تشكلات النّص الروائي الذي ما انفك أن جربت عليه عناصر من الواقع الاجتماعي، وتلاشت بداخله شخوص تسرد لنا القصص الغرامية، ورموز تعكس الحقائق، وتروي الأساطير بمختلف دلالتها الاجتماعية والسياسية والدينية واللغوية،وتعبر عن تلاقح الأفكار والإيديولوجيات.

2) الإرهاصات الأولى للرواية التاريخية:

وبعد هذه الإطلالة السريعة على معنى التجريب بصفة موجزة محاطة بالشمول لا بالتفصيل نرجع لنثير الموضوع الذي أسلفناه حول التاريخ ،وبالتحديد الرواية التاريخية، ولعل أول رواية تاريخية هي ذلك النّص الذي خلفه "**السير والتر سكوت**" وموضعه بعنوان "**إيقنهو**" والتي جاء التأكيد عليها في كتب عديدة من تاريخ الأدب الانجليزي(Littérature anglaise) على أنّها حملت فضل الفترة التمهيدية لهذا النوع الأدبي بدليل:"أن السير والتر سكوت تخلى عن الشعر، واتخذ وجهة أخرى بعد أن رأى ذيوع اللورد (بايرون) في مضمار الإبداع الشعري. وبعد أن تأكد له أن معينه الشعري على وشك أن ينضب في مواجهة أساطير الرومانسية من الجيل الجديد. لم يجئ هذا التحول الإبداعي بصورة عفوية،إنّما ولد بعد مخاض عسير، وبعد قلق شديد،ولقد جاءت هذه الولادة متأخرة، أي بعد أن جاوز السير والتر سكوت الأربعين من عمره، وسينبغي الاعتراف بنبوغ هذا الروائي، أي بالشيء الجديد الذي جاء به في العقد الثاني من القرن التاسع عشر،فهو لم يعمد إلى تقليد الفن الروائي الناشئ في إنجلترا يوم ذاك. على الرغم من أنّ هذا الفن كان راقيا جدا،ولم يبادر إلى تقليد هذه المدرسة الفنية أو تلك على الرغم من الإنجازات الروائية التي تحققت خلال القرن الثامن عشر على أيدي كتاب كبار أمثال **ديفو** (**defoc**)**وسو يفت** (**Swift**)**وريتشارد سون** (**Richardson**) بل سعى بجهده الخاص وبعد دراسة

---

3. [4] . المرجع نفسه.ص 17

البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي يعيشها إلى وضع أسس الرواية التاريخية التي صارت فيما بعد مدرسة فنية قائمة بذاتها،وصار لها أنصار عديدون في إنجلترا وفي أوروبا ثم في العالم أجمع "[5] .

3) تاريخ الرواية الجزائرية:

تدفعنا هذه النظرة الطفيفة لجذور الرواية التاريخية عبر منفذ التاريخ العالمي إلى الولوج في منابت أصول الرواية التاريخية على وجه الخصوص ونتدرج إلى إعادة طرح "**مرزاق بقطاش**" من جديد حين استفهم قائلا:"هل هناك كاتب روائي جزائري مهتم بالتاريخ يقدم لنا رواية عن الكاهنة أو عن الريس حميدو أو عن مقارعة الجزائر لجحافل الصليبية الأوروبية ما بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين [6]؟ فنجيبه قائلين:"أن الروائي الجزائري لم يكن إلّا عنصرا فعالا دوما،قد أهمه فن التأريخ وفق أبعاده الثلاثة القومية والإقليمية والإنسانية، ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ الأدب الجزائري ارتبط ارتباطا وثيقا بما آل إليه وضع الوطن الجزائري وشعبه بأكمله من ظلم واضطهاد إبان الفترة الاستعمارية وإن كان في الحقيقة أنّ الاستعمار نقمة على الشعب من جهة ونعمة على الأدب وثرائه وزخمه الكمي والنوعي من ناحية أخرى لأنّ: "الحركية الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي،فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة،وصدى همومها وأمالها،ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها، يرصد جوانب الخير والشر فيها، فيبارك بتلك عموما، ويعرض بهذه ويدينها غالبا، مبشرا بمثل العمل والمحبة والوفاء داعيا إلى سعادة الإنسان وصون كرامته،وكرامة وطنه،معلنا عداءه لكل أشكال الظلم والقهر، وكل أساليب المصادرة التي تتعرض لها حرية الأفراد والأوطان(...) وتألقت في ذلك –بالعمل والإنتاج لا بالدعاية والتهريج شخصيات أدبية كثيرة مختلفة بدأت من العشرينيات تعكس ملامح أدب جزائري نضالي يتعذر التعرض إليها جميعا "[7]، وقد يتعذر ملاحقة سيرهم الشخصية، ومساراتهم النضالية التي لفت بهموم الوطن العزيز والشعب المجاهد المغلوب على أمره، ولنكتفي بذكر بعض الأسماء الساطع نجمها في ليل الجزائر حينها، ففي الشعر نذكر لسان الثورة التحريرية وقلمها الشاعر "مفدي زكرياء"، و"الأمير عبد القدر" ...وغيرهم، أمّا في النثر فقائمة الكتاب طويلة يترأسها "البشير الإبراهيمي"، "حمدان بن عثمان" "خوجة" و" محمد العنابي" ...وغيرهم. و نعود لنقل مادامت الرواية تعظم أهميتها وتزداد بتجريب إدخالنا عنصر التاريخ عليها كونه فن عزيز فلماذا لا نكتب رواية تاريخية تروي تاريخ الجزائر إلى القراء الذين تكتنفهم عزة البلد الجزائري ؟ نعم "لقد تغيرت الأوضاع وتطورت بطبيعة الحال،ولم نعد في نفس العصر الذي عاش فيه السير والتر سكوت، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نعمل على إبراز رواية تاريخية جزائرية

---

4. [5] السير والتر سكوت،إيقنهو،موفم للنشر،الجزائر 1989 م،ص 03.
5. [6] . د/عمر بن قتيبة،في الأدب الجزائري الحديث،تاريخا وأنواعا وقضايا ...وأعلاما،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 2009 م،ط 2 ،ص 62
6. [7] السير والتر سكوت،إيقنهو،ص 5

تلهب خيال القارئ الجزائري وتجعله أكثر اعتزازا بتاريخه ووطنه، إن لنا تاريخا يرصد لنا حياة الأمير عبد القادر مثلا، فإنّه يحسن بنا أن نفسح المجال أمام الكاتب الروائي لكي يعالج لنا نفس الموضوع ولكن بطريقة فنية جذابة أبعد ما تكون عن الأرقام والمواقع والتحليلات والتبريرات الجافة [8] وانطلاقا من القول يتبين لنا أنّ أمر كتابة رواية تاريخية جزائرية أمر ضروري كون أنّ التاريخ الجزائري متوفر على مسحات تاريخية مهمة نتمكن من خلالها التأسيس لرواية تحتضن التاريخ وتروج لأهم أحداثه، فهذا لا يعني أنّنا كتبنا التاريخ، وما يجب فعله هو أن نجعل من وراء كتابة التاريخ هدفا كأن يكون هذا الهدف تعليميا مثلا،والأمر ذاته تنتهجه الدول المتقدمة مع أطفالها في المدارس لإذكاء حسهم الوطني وقد نبه غلى هذا "مرزاق بقطاش" في تقديمه لرواية "غادة أم القرى" بقوله: "في البلدان المتقدمة روائيون عديدون يعملون على عرض جوانب مشرقة من تاريخ مجتمعاتهم، وهم يعتبرون سندا لا يستهان به في مضمار التربية المدرسية وفي إذكاء الحس الوطني لدى أبناء وطنهم، ونحن في حاجة إلى أن نقتدي بأولئك الكتاب الروائيين حتى نتدارك النقص الذي يعانيه التلميذ الجزائري في برنامجه التربوي وخاصة منه ذلك الذي له علاقة مباشرة بالتاريخ"[9] التاريخ الذي نسد به الثغرات والمآزق حين نعجز عند الوقوع فيها عن فهم هويتنا بكل أبعادها .

إنّ أوّل رواية تاريخية جزائرية كانت للروائي "أحمد رضا حوحو" بعنوان "غادة أم القرى"، ولم يتوقف الزمن السردي للتاريخ عندها،بل تلتها روايات أخرى مثل رواية "محمد مفلاح" التاريخية المسطرة تحت عنوان "خيرة والجبال" والتي حاول من إيرادها سردا روائيا بالشكل والمضمون الوقوف على نقاط ركائز في أساس التاريخ الوطني، وأظنه قد جاء دورنا لنكشف عن مضمون هذه الرواية، والأواصر المرتبطة بتاريخ الوطن المجيد،ونبين كنه العناصر الروائية التي كانت المرآة العاكسة له، ونستخرج مدى نجاحها عندما جرب عليها التاريخ والنتيجة التي اعترت المنحى الروائي طول النّص .

II. ملخص الرواية :

لقد تضمنت الرواية فصلين، وقد جاء محتواها كالآتي :

الفصل الأول :ورد بعنوان "كيف تحررت خيرة اليحياوية، وفيه تحدث الكاتب عن زواجها من يحي اليتيم الذي حررها من ألسنة القرية، وجعلت امرأة بعده للمهدي شاقور، ثمّ "القايد الحبيب" لما عادت من الجبل إلى القرية، وبعد موته مقتولا تزوجت من عواد الهم وكان لها خلال هذه الفترة ثلاثة أولاد :راشد ابن يحي اليتيم محمد ابن المهدي شاقور،والطاهر ابن عواد الهم"[10].

---

7. [8] . المرجع نفسه،ص ن.
8. [9]–المرجع نفسه ص ن.
9. [10]–ينظر محمد مفلاح،خيرة والجبال ,المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988 م،ص 5–75

أمّا الفصل الثاني: وهنا أسهب الروائي في سرد الحديث الذي رواه محمد ابن عواد الهم عن أمه،وعن حياتها بعد الحرب، وحياة أبناءها راشد والطاهر وحياته حتى هو، ثمّ أخبرنا كيف تعرف عليها بعدما اكتشف أنّ الخبر الذي وصله عن موتها غير صحيح،وفي النهاية ماتت بطلة الرواية،وولت بنت محمد خيرة التي حملت اسمها"[11]

1) **شخصيات الرواية** : كلها تحمل الأسماء نفسها المتداولة في منطقة غليزان.

خيرة اليحياوية ← بطلة المشهد الروائي.

أزواج خيرة الأربعة :يحي اليتيم ←الزوج الأول أنجبت معه المجاهد الأول راشد.

المهدي شاقور ←الزوج الثاني أنجبت معه المجاهد الثاني الطاهر.

القايد الحبيب ←الزوج الثالث لم تنجب معه أطفال.

عواد الهم← الزوج الرابع الذي حبلت معه بمحمد المجاهد الثالث

- إمام القرية عبد القادر .
- والدي خيرة :الأب بن عودة /الأم خديجة .
- البطاش وابنته مريم .
- محمود ابن القايد وزوجته دليلة (عائشة بنت الإمام عبد القادر)
- منصور لعور الذي ظل يحرض الناس ضد خيرة وحتى المعمر.
- الشيخ الطيب،الحاجة بختة .وهما من الشخصيات المكملة للحدث الروائي.

المناطق الدالة على منطقة غليزان:قرية خيرة اليحياوية ،الجبل الأخضر،لاصاص، برمادية ،زمورة، الطوب.

أمّا بالنسبة لأحداث الرواية فنوردها في العناصر الآتية ونصنفها حسب ميزاتها مع العلم أنّ كل هذه الحوادث تخضع لحدث واحد وهو الحدث التاريخي والمقصود بالدراسة، ففي الحقيقة كلها أحداث ارتبطت بالواقع الثوري وزمن الحرب والاستدمار، وإن تفرعت على مجالات مختلفة من حياة الشعب الجزائري المضطهد، كالسياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع.

الفصل الأول : كيف تحررت خيرة اليحياوية ...

- محاولة خيرة اليحياوية الانتحار لما تعانيه من ظلم وتسلط من قبل أفراد أهل القرية ←غياب العدالة الاجتماعية .(حدث اجتماعي)

---

10. [11] -ينظر المرجع نفسه ص 75-181.

- رفضت أن تعيش حياة عادية مثل باقي نساء القرية ورفضت الزواج من يحي الذي ظلّ يطاردها في أزقة القرية ملحا عليها الزواج منه لأنها رفضت أن "يكون لها أبناء أذلاء يمنحون جهدهم للمعمرين والقياد وجيش فرنسا "[12]←التفكير في تحرير الوطن عن طريق إنجاب مجاهدين أكفاء .(حدث ثوري)
- هددها أبوها بالقتل في يوم ربيعي عادت متأخرة إلى البيت "وجدت عند عتبة الكوخ أخرج سكينا من جيب سترته المتسخة"[13]←جهل الأب بخطورة تهديد الطفلة خيرة المراهقة،كما للفظة سترته دلالة على الوضعية الاجتماعية المزرية وشدة فقر الأب بن عودة الذي لا يملك شيئا (حدث اجتماعي).
- نصح الرجال بن عودة أن يطلق زوجته خديجة والتزوج "من امرأة خصبة كأرض المعمر "[14]← إنجاب أولاد للوطن. (حدث ثوري).
- تهور خيرة وإنشادها "قصائد غزلية وهي تمر على الرجال الذين التصقوا بجدار المسجد والدكان"[15]← تدني المستوى الاجتماعي الثقافي في تلك الفترة جعل البنت تتسكع في الطرقات، وبقاء منصور لعور وبعض رجال السوء مكتوفي الأيدي لا عمل لهم سوى مراقبة الناس ولسعهم بألسنتهم الجارحة . (حدث اجتماعي ثقافي).
- تفكير بن عودة في الرحيل من القرية خشية من ارتكاب جريمة قتل،لأنه يئس من زواج خيرة المترجلة التي لم ترض بوضعها الاجتماعي كباقي الفتيات، وهروبا من لسان منصور لعور الذي تضجر منه حتّى إمام القرية "لا تسخروا من خلق الله "[16]← تدخل الإمام دليل على وجود الوازع الديني،كما لا يوجد قضاة أو محاكم يحتكم إليها إلا إمام القرية، حيث كان المسجد مكانا للدرس والحكم ومكانا للاجتماعات، والتشاور والتحاور. (حدث ديني)
- عقد بن عودة مغادرة القرية إلّا أنّ "زوجته الهادئة كجبال المنطقة ابتسمت له واستقبلته بفرح وقدمت له كأس الحليب وقطعة خبز(...)لن نرحل عن هذه القرية (...)هنا ولدنا وهنا نموت(...)ابتسمت له بطيبة ربتت على كتفيه قائلة بصوت هادئ سنبقى هنا..."[17]←ثقافة الزوجة في معاملة زوجها فخديجة نموذج للمرأة المثالية ثمّ إنّها امرأة وطنية تحب أرضها وتأبى هجرانها. (حدث اجتماعي ثقافي).
- من عادات وتقاليد المنطقة في الزواج التقليدي أنّه بعد الفاتحة يمكن أن تذهب الزوجة مع زوجها، وحفل العرس يكون حافلا بالمسرات كقرع الطبول وأنغام القصبة،والعروس تخيط ثيابها بيديها

---

11. [12] -المرجع نفسه ص 07
12. [13] -المرجع نفسه ص 08
13. [14] -المرجع نفسه ص 10
14. [15] -المرجع نفسه ن.ص
15. [16]-المرجع نفسه ص 12 .
16. [17]-المرجع نفسه ص 14 -15

لقول الروائي "بعد الفاتحة خذ زوجتك إلى أي مكان تريد (...)كان يوما حافلا بالمسرات(...)طبول وأنغام القصبة ورقص وغناء "[18] ←يندرج هذا ضمن ثقافة المنطقة، وعادات وتقاليد المنطقة في الاحتفال بالزواج. (حدث ثقافي) .

- شقت خيرة الطريق قاصدة بيت يحي اليتيم الذي أراد تغييرها وجعلها مثل أمها في صورة هادئة وطيبة والذي قيل عن والده أنّه انتحر بعد وفاة زوجته هناك اتجهت نحو البئر لتنتحر لكن طائفة شعورية لا مست كيانها فعادت مسرعة إلى كوخ يحي لتلقي بنفسها في أحضانه وعاشت معه تلك الليلة الحلوة الجميلة التي لم ينسها طوال حياته وكانت حجة لها دفعت عنها ألسنة القرية عندما اتهموها بالزنا. وبعد كل هذا فضلت أن تراقب القرية من ثقب الباب ولن تخر إلى القرية إلّا بعد خروج ابن الليلة المنيرة. ←كيف كانت المرأة تعاني ويلات الظلم حتّى في المجتمع حتى في احضان أهالها وذويها (حدث اجتماعي).

- "ابتسمت ساخرة ..أبوها كان يهددها بالذبح وهذا الزوج المعدم لا يتفوه إلّا بألفاظ الموت ...[19] ← كانت المرأة تضرب بالعصا وتسجن في البيت إذا خالفت الرجل لانعدام الثقافة بأهمية المرأة في الوجود (حدث ثقافي).

- تلفعت الأم خديجة بالحايك واتجهت صوب بيت ابنتها لما علمت بعنادها مع زوجها ← لبس الحايك (حدث ثقافي).

- قول الإمام مزمجرا على منصور بألّا يسيء إلى خيرة مذكرا إياه بخطورة القايد "القايد(...)نعم القايد الحبيب سيستولي على كل أراضي القرية(...)ستصبح له(...)ملكه الخاص..."[20] و كان الحديث الكثير عن خيرة الذي تجاوز حدود القرية وبلغ به القايد سببا سياسيا للاستيلاء على القرية ثمّ الاستيلاء على الخمسين خطوة... ←لقد كان لشيخ المسجد الإمام سلطة على توجيه أفراد المجتمع،فالمجتمع في تلك الفترة كانت كل قوانينه منبعها الدين الإسلام، أمّا قوانين فرنسا فلم تكن إلّا سلطة قهر وتجبر تذل بها هذا الشعب الأبي ومراقبته أينما ولى، ومن جهة أخرى لم يقتصر دور الإمام على الإدلاء بالأحكام الشرعية في حق المظلومين بل كان رجلا سياسيا ومحاربا ينبه الناس إلى مخاطر العدو الفرنسي،ويبصرهم بقيمة الوطن والعيش بحرية في كنفه (حدث ديني سياسي).

- لقد مات أبو يحي العزيز، وهو الآن "يعاني في صمت وبجانب زوجة عنيدة تحرضه على الثورة (...)وإلى أين سيذهب ؟(...)انتهى زمن الحرية(...)كيف نسي الجبل الأخضر سيحتضنه المهدي شاقور سيعلمه كيف يستعمل البندقية ويعود ليقتل الطغاة،سيصبح من جماعة الجبل الأخضر(...)وقم

---

17. [18] -المرجع نفسه ص [16]
18. [19] -المرجع نفسه ص [25].
19. [20]- المرجع نفسه ص [30]

يحي اليتيم عثر عليه الرعاة ميتا والخنجر منغرز في ظهره مع جرح عميق في مؤخرة رأسه... "[21] ←حتى الطبيعة تقاسمت هموم الثورة مع هذا الشعب المضطهد من جبال ووديان وغابات،بدليل أنّ الجبل الأخضر كان مأوى للثوار المناضلين في سبيل الوطن (حدث ثوري)

- ولدت خيرة راشد ورحلت عن القرية:"ارتدت فستانها الأخضر المطرز بالورود البيضاء الصغيرة واختفت من القرية(...)بعد أكثر من سنة عادت إلى بيت والدها "[22] جاء القايد إلى القرية وطلب من خيرة النهوض من قدام عتبة الباب، لكنها سمرت عينها فيه وقالت له :"ليس قبل أن تتزوجني "[23] وبعد استهزاء ومراوغة طويلين قرر القايد الزواج منها .←طلبته زوجا لأن تخلص الناس من بطشه وظلمه وهذا يخدم الثورة (حدث ثوري).
- تمني خيرة لقاء البطل الذي قتل القايد، والفاعل هو ابنها راشد،قالت أنّها ستقبله بقوة وتقول له:"أجرّ نحو الجبل الأخضر لا تلتفت خلفك "[24] ←حقدها على القايد وفرحتها بمقتله دليل على أنّها امرأة ثورية حقا، ثمّ إنّ بحثها عن القاتل لتقبيله وتوجيهه إشارة إلى حبها لشعبها المكافح ومساندتها لهم. (حدث ثوري).
- طرد محمود خيرة من البيت "فجمعت أشياءها في حقيبة جلدية سوداء وقبل أن تغادر البيت قالت لمحمود . هذا البيت ملك الجبال(...)فقهقه ساخرا من هذيها،فأضافت قائلة(...) وستهزمكالجبال "[25] ← فعلا كان هذا البيت ملجأ يحتضن الثوار فهو ليس لخيرة وعائلتها بل حتّى هذا المنزل الرثة سخرته لأجل نيل الحرية والاستقلال. (حدث ثوري)
- كان عواد الهم ينشر الثورة في كل مكان وذات يوم اعتلى كرسيا خشبيا في ساحة السوق السوداء و قال :"يا أبناء الجزائر الثائرة(...) اعلموا أن الثورة لا تموت أبدا(...)فرنسا انتهت(...)أصبحت خرافة فاستعدوا لمواجهة الغد واحذروا الخونة ..."[26]←هنا يخرج بنا الروائي من ذلك الزمن إلى زمن التبعية؛ ما بعد الاستقلال، وفعلا هذا ما رهن به واقعنا نحن الشعب الجزائري . من تبعية اقتصادية واجتماعية وثقافية، لم ننسلخ منها منذ تلك الفترة النكباء (حدث ثوري).

وأمّا الفصل الثاني :ماكتبه محمد عن أمه خيرة اليحياوية :

- مجيء موسى الزرقاوي وأخبر محمد بوفاة أمه وكان في الحقيقة افتراء فهي لم تمت، ففرح من فرح في السوق، وأصاب البعض الآخر الحزن عليها وعلى ما قدمته للبلاد من جهد وكيف ضحت

---

20. . المرجع نفسه ص 39 38 21
21. . المرجع نفسه،ص 43 22
22. . المرجع نفسه ص،45 23
23. . المرجع نفسه ص 41 24
24. . المرجع نفسه ص 52 25
25. . المرجع نفسه ص 68 26

بنفسها لأجل استقلال البلاد ومن سوء حظه التقى بالقايد محمود الذي أخبرته عنه بقولها :"إنه قائد من نوع جديد(...) إنّه أخطر من أبيه القايد الحبيب(...)زارت أكثر من بيت لتقول لمن يريد سماعها بأنّ الثورة ما زالت وستظل مستمرة حتّى يموت كل القياد وأتباعهم... "[27] ←رغم انتهاء الحرب وانصراف زمن فرنسا الغاشمة إلّا أن الحرب الباردة لم تزل قائمة، ويقصد بها حرب التبعية (حدث ثوري سياسي).

- أصبح محمد يدرس في مدرسة **الزموشي**،كانت هناك عجوز تخبره بحياة أبيه وبالتفصيل وذات مرّة خرج قبل الحصة واتجه نحو بيت **ما عودة**، ومرض وحلم بعد نومه، وعندما فطن من غيبوبته طلب من أمه أن تخبره عن خيرة، ولما علم أن خيرة لم تمت اتّصل بها وأخبرته كل شيء، وأمرته أن يتزوج دليلة لأنّها تعيش بهوية مستعارة، فهي عائشة بنت الإمام . ←دليلة هذه كانت تعيش في بيت القايد الظالم بهوية مستعارة، ولم يبرز الروائي دورها لأنّه وظفها كشخصية هادئة لم تكن ثائرة مثل خيرة اليحياوية، التي طلبت الزواج من القايد، لتحرير الأرض، وعتق الرقاب من وطأة الظلم والظالمين، رغم أنّ عائشة بنت الإمام، وهذا يدل على الثورة لم يشارك فيها الأغنياء أو أبناء الشرفاء،وإنّما كان معظم المناضلين من الطبقة الضعيفة، حركتهم العزيمة والمثابرة ونبذ الظلم. (حدث اجتماعي ثوري) .

- وبعدها أصبح أبا للطفلة خيرة ،وهنا جاءت لحظة فراق خيرة الحياة على الساعة الرابعة مساء في بيت عواد الهم "الذي كان منذ بناءه خلية للثوار ومأوى للمضطهدين "[28] ←يكرر الروائي حدث مهم في الرواية وهو البيت المأوى الذي حمى تحت سقفه الثوار واحتضنهم من رصاص الاستعمار الغاشم رغم بساطته وقلة اتساعه، وعبر عنه بالخلية،فهي وإن تقلصت مساحتها إلّا أنّها تحضن الآلاف من النحل وذلك من حسن النظام، فالجيش النضالي كانت تكفيه امرأة واحدة لطهي الطعام،ومغارة أو بيتا واحدا للاختباء، أمّا الراحة فلم يذق طعمها أبدا في ظلّ القصف والدمار...وغيرها (حدث ثوري اقتصادي).

2) المفارقات الزمنية في الرواية:

إنّ للزمن قيمة كبيرة جدا داخل النّص السردي " فهو أحد العناصر الإجرائية الداعية للجنس السردي(...)شأنه في ذلك شأن الحضور اللغوي والحيز، وحركة الشخصية الورقية وما سواها من مشكلات ما هو سردي "[29] ،وإذا جئنا إلى ترتيب الزمن داخل الرواية نجده يخضع لمستويين :

الأوّل: الزمن وفق المستوى النّصي، يكون مكسرا وبشكل مبالغ فيه،والثاني يطابق المضمون ويوازي الواقع، فالترتيب الزمني إذن "ترتيب ينهض على مستوى الوقائع، وترتيب فني على مستوى النّص أو

---

26. . المرجع نفسه ص 8180 27
27. . المرجع نفسه ص 181 28
28. محمد صالح الشنطي،أسئلة الفكر وفضاءات السرد،ص 17 29

القول، وتتوقف عند الترتيب الفني فترى هناك عملا روائيا حديثا يتكسر زمن خطابه السردي باستمرار وبشكل مبالغ فيه،وآخر يوازي فيه مستوى القول مستوى القص في توال يطابق تواليها الوقائعي ويتماهى فيه، إذ ذاك يبدو القص أشبه بالسرد الأمين للتاريخ "[30] .

ويقسمه "إبراهيم خليل" في كتابه المتخيل السردي إلى أربعة عناصر وهي على التوالي: "التتابع والتداخل والتوازي و التكرار "[31] وهو نفس التوزيع الذي عمد إليه الروائي "محمد مفلاح" في روايته هذه.

يبرز خط التتابع بوضوح في طرائق السرد عنده . "محمد مفلاح" ليفهمنا بعض القضايا التاريخية وتحديد الموقف منها و"يأتي التوازي مجرى الحدث وإثرائه لتفسيره وفهمه، أمّا التداخل فيسلط مزيدا من الضوء عليه لتعميقه وبلورته، فكانت رواية الشخصيات الأخرى كاشفة لأبعاد متعددة ولهذه القضية "[32]، لذلك زمن السرد في هذه الرواية نسج وفق خطوط التتابع في سرد جزء من تاريخ خيرة اليحياوية والمتعلق بطفولتها في فترة المراهقة حتى زواجها من يحي اليتيم، ويواصل الراوي "محمد مفلاح" الحديث عن الأمور التي وقعت لخيرة بعد هذا الزواج الذي كان سيفا مسلطا على رقبتها.

وتتوازى خطوط التتابع زمنيا مع حوادث القهر والظلم الذي كانت تعانيه المرأة الجزائرية في تلك الفترة سواء القهر المسلط من أفراد المجتمع في ظل انعدام العدالة الاجتماعية، أو القهر والحرمان الاستعماري الذي نفث سمومه في هذا الجسد الضعيف على أنّه صار محل أشكال التعذيب والاضطهاد.

وهذا التوازي يفضي بنا إلى تداخل أزمنة أخرى تظهر بظهور الخط الموازي لزمن الوقائع المتتابعة. تتجلى في نقل واقع شخصيات مشاركة مساعدة على وضع أفرع للزمن كشخصية الابن راشد الذي توقف عنده زمن حركية خيرة لما كانت حاملة به، وبعد خروجه انطلقت اليحياوية لتسجل لنا أحداث زمنية من خارج أطر قريتها، أي من الجبل الأخضر، وظهور شخصية المهدي شاقور وابنه الطاهر.

وأخيرا نعرض عنصر التكرار المتولد عن ظاهرتي الاسترجاع والاستباق، فهو يسهم بدوره مثله مثل العناصر الأخرى في استحداث الزمن داخل النّص على تنوعاته التاريخي،الكوني...وغيرها،"ففي الاسترجاع يترك الراوي مستوى القص الأول ويعود إلى بعض الأحداث الماضية ويرويها في لحظة لاحقة "[33] ، ونلمس هذا عند الروائي الجزائري "محمد مفلاح" حين راح مثلا يسترجع شخصية محمود ابن القايد الحبيب ويسرد حقيقتها، فهو كان بداية قد تعرض لها كشخصية ثانوية اكتفى بذكرها مرة واحدة أيان قال لزوجة أبيه خيرة: "البيت بيتي ففكري في الخروج منه (...)أنا ابن القايد الحبيب "[34] ، فالراوي

---

29. . ينظر نفسه،ن ص. [30]
30. . المرجع نفسه،ص [18] [31]
31. . المرجع نفسه ،ص [123] [32]
32. . المرجع نفسه،ص [22] [33]
33. . محمد مفلاح،خيرة والجبال،ص [51] [34]

عاد إلى استحداث ظهوره الطفيف ليفصل أكثر، ويسرد علينا حقيقته كون الرجوع إليه أصبح حدث مهم، يستلزم حضوره بقوة في متن الحكاية السردية.

وإذا تدرجنا نحو الزمن التاريخي نجده يتجلى بوضوح وفق هذه الخطوط التقنية الخادمة للسرد الروائي، كما يمكننا الوقوف عليه من خلال المرأة التاريخية الجزائرية المثل لها في الرواية بالبطلة خيرة اليحياوية التي أخضع قصتها إليه وبحسب مراحله الثلاثة: فترة الاستعمار قبل الثورة، ثمّ زمن الثورة ومرحلة ما بعد الثورة، ففي الأولى مثلا كانت فيها اضطهدت المرأة، نتيجته الأثر السلبي الذي خلفه المستعمر على معاملة الرجال واضطهادهم أيضا، فصار الأهالي من الرجال يعاملون نساءهم نفس المعاملة،الأمر ذاته حاول الروائي تصويره للقراء،خاصة لما أصبحت كل أنظار أهل القرية موجهة نحوها لفرض سيطرتهم على تهورها . خيرة اليحياوية .، محاولين التنبيه إلى نار الفتنة التي تتأجج الكلاب الضارة السائل لعابها للفتك بعنادها وترويضها،لكن الحقيقة غير ذلك فرجال القرية قد كبلهم المستعمر بقيوده ولم يجدوا منفذا لاستنشاق عبير الحرية، ومن ثمة لا ملجأ إلّا الاكتراث بهذا الجسد الضعيف لاستنزاف غضبهم وحقدهم على المعمر بداخله .

خاتمة:

يجوز لنا ممّا تقدم القول أنّ الكاتب جرب التأريخ للوطن من زاوية الفن الروائي، فهمش التاريخ وزوره لا لشيء إلّا ليضعنا بداخل متن صفحاته، وإن كان أفرط حديثا عن شخصية خيرة اليحياوية وتعدّد زواجها وأولادها، لم يقصد إلّا إرجاعنا إلى فترة ضغوط المستعمر على الشعب وتمزيق أفراده واحدا بواحد ومهما كان جنسه من جهة، وليرصد لنا صور وأشكال اضطهاد ومعاناة المرأة الجزائرية من جهة ثانية، منبها إلى تاريخ منطقة غليزان التي قصفت سماؤها ودمرت أراضيها إبان زمن الاحتلال الغاشم. كما نتوصل إلى نتيجة أنّ الروائي يستطيع نقل التاريخ وبصورة جذابة تستهوي القراء، من غير ذكر السنوات والأيام والأشهر مثل ما هو معمول به في كتب التاريخ الضخمة، وإن كان المؤرخ العادي يكتب من باب الحقيقة والصورة الفوتوغرافية(Photographies)، فإنّ الروائي ينطلق من لسان قلمه المجازي وشخوص من نسيج خياله، ليستمتع المتلقي و يتثقف من حقيقته المخبأة وراء ستار الحروف والكلمات .